طابع سيء

للأستاذ عيسى متولى

من أبرز الظواهر الشائعة فى مجتمعنا ظاهرة " الإسراف " فلقد تغلغل هـذا الداء فى نفوسنا حتى تمكن منها ، وسيطر على معظم أعمالنا ونواحى حياتنا ، فكان "الطابع السيئ" الذى شوه من جمالها ، ونال من قدرها ، وجعلها موضع النقد والمؤاخذة ، فنحن "شعب مسرف" بكل ما فى الإسراف من المعانى .

نسرف فى التفاؤل إلى حد تضيع معه الفرص من أيدينا ، ويصرفنا عن التسلح للفاجآت قبل أن تفاجئنا فنستسلم لها أو نقاومها بطرق ارتجالية قد لا تجدى نفعا .

ونسرف فى التشاؤم إلى حد ينغص علينا الحياة ، ويصورها لنا بمنظار أسود قاتم ، فنغدو فريسة للأوهام . وما أبأس ضحايا الوهم وما أكثر عديدهم . لقد أفسد عليهم الوهم حياتهم ، وأوصد أمامهم أبواب الأمل . وما قيمة الحياة وقد غربت من أفقها شمس الأمل والرجاء ؟

ونسرف فى المزاح إلى حد السخف ، فلا نفرق بين الجد والهزل ، بل نخلط بينهما فى أحايين كثيرة ، ولا تفوتنا " النكتة " حتى فى أحرج الظروف وأقساها . . . ما أبرعنا فى هذه الناحية ! . . إننا لا نبارى ولعل أصدق مثل أسوقه هنا أننا كنا نسمع بعض النكت ونحن فى المخابىء أثناء الغارات الجوية ، وهـذا منتهى ما يتصوره العقل من الإسراف فى الهزل والمزاح ... ونمزح فى الطريق ، وفى ديوان العمل ، وفى كل مكان دون أن نتقيد بشىء ، وكثيرا ما يخرج هذا المزاح عن حدود الأدب واللياقة ، وحسبنا دليلا على ذلك ما يعمد اليه الكثيرون من أساليب سخيفة يعتبرونها مزاحا ، وهذا لون ثقيل من المزاح ، فبينما العالم يجد ، والأمم تتسابق فى ميادين الحياة المختلفة . وتطفر الطفرات الواسعة ، وتبتكر شتى البدائع والمبتكرات ، نصوغ نحن النكات . ونعنى بحبكها ، ونسرف فى المزاح واللهو الى حد المجون !

ونسرف فى الانفاق إلى حد التبذير ، فلا نحسب للغد حسابا ، ولا ندخر من يومنا لغدنا ، بل نعمل بالمثل الذى يقول (إصرف ما فى الجيب ، يأتيك ما فى الغيب) وكان الأولى بنا أن نعمل بالحديث الشريف (اغتنم خمسا قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك) فنعد للغد عدته ، ولكننا تعودنا الاسراف فى كل شىء فأصبح غريزة من غرائزنا وطبعا من طباعنا فالموظف ينفق راتبه عن آخره ، والعامل ينفق أجره عن آخره . ونشاهـد فى هذه الأيام موجة الاسراف تغمر العامل وقد ارتفع أجره بسبب ظروف الحرب الراهنة ، يسرف فى الانفاق

إسرافا بعيدا عن الحكمة ، وفاته أن ظروف الرخاء ظروف مؤقتة سيتعرض بعدها لظروف أخرى يجهل مصيرها فيتحتم عليه أن يعد لها عدتها ، حتى لا يستهدف للبطالة أو التعطل .

ولقد رأينا فى الحرب الماضية ألوانا من الاسراف بلغت حد الهوس والجنون على أثر ارتفاع سعر القطن ورواج سوقه . فسمعنا بمن كان يشعل لفافات التبغ بأوراق النقد ذات الفئات الكبيرة ، وسمعنا بمن كان يبعثر الأموال الطائلة ذات اليمين وذات الشمال ، ولعل هؤلاء السفهاء قد عرفوا قيمة المال بعد أن خلت منه أيديهم ، وأصبحوا لا يملكون شروى نقير .

ونسرف فى المظاهر إسرافا يبلغ حد السفه ، ويبدو هذا الإسراف جليا فى الافراح والمآتم التى تتكلف النفقات الطائلة ، وربما أكره البعض على الاستدانة لاقامتها؟ للظهور أمام الناس بمظهر الغنى واليسار ، وكلها عادات قديمة ، ما أنزل الله بها من سلطان ، يحرص الناس على التمسك بها فى زمن قل فيه تمسكهم بأحكام الدين !

ومما يدمى الفؤاد ألما أن يموت رب البيت ، تاركا ذرية ضعافا ، بينهم الشاب فى نهاية مراحل التعليم ، وبينهم الفتاة على أبواب الزواج ، وبينهم الطفل الرضيع ، ومع ذلك يصر أهله على إقامة السرادقات وإحياء ليالى المأتم ، وأبناء الميت وأهلوه أحق بهذه الأموال التى تنفق هباء دون أن يستفيد بها فرد منهم ، وإذا سألتهم عن الدافع القهرى إلى ذلك أجابوك بأنهم إنما فعلوا ذلك خشية "ألسنة الناس" ومن عجب أن يخشى هؤلاء القوم "ألسنة الناس" ولا يخشون "عوادى الزمن" و "عواصف الأيام" تعصف بهؤلاء الصغار الذين لا يملكون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، ويعرفهم تيارها العنيف دون رحمة أو شفقة يومئذ لا يفكر فى أمرهم واحد من هؤلاء "الناس" الذين هم من خشيتهم مشفقون ؟ فمال هؤلاء القوم يسيئون التصرف ، ومال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟ لقد أعماهم حب الظهور عن تأدية الواجب ، وأضاعوا حق اليتيم فى سبيل الاسراف فى المظاهر ، وكان عاقبة أمرهم خسرا ؟ .

ونهيم حبا بحفلات التكريم ، نقيمها فى كثير من المناسبات ، فننفق الوقت والمال دون حاجة قصوى تدعو إلى هذه الحفلات التى لا تخلو عادة من التملق والنفاق .

ونسرف فى ترويج الاشاعات إلى حد يثير الدهشة والعجب . . فما تكاد تذاع إشاعة حول مسألة من المسائل حتى تتناقلها الألسن هنا وهناك دون أن يتحرى مذيعها الحقيقة بل يروح هذا بدوره يذيعها فى كل مكان ، ويهمس بها فى كل أذن ، ويعلق عليها بما يصوره له خياله ! ولا تلبث هذه الاشاعة أن تروج وتصبح خبرا يروى على أنه حقيقة ، وما هو فى الواقع إلا "أكذوبة" وجدت سوقا رائجة فى المجالس والمنتديات ، وتناقلتها الألسن ، وتناولتها بالتغيير والتحوير . . وما آفة الأخبار إلا رواتها ؟

وللاشاعات مروجون ومذيعون، يروجها المرجفون فى المدينة، ويزخرفونها، ويشيعونها على الملأ فى صورة "أخبار" و"حقائق" ويعزونها الى مصادر مختلفة، أو شخصيات كبيرة يوثق بها !..

ولهم فى ترويج هذه الاشاعات أساليب غريبة . فهم يروونها لك كأنها حقيقة شهدوها بأنفسهم، ويصفون لك ما دار فى الاجتماعات من مناقشات كأنهم سمعوها من أفواه قائليها أو كأنهم اشتركوا فيها ! واذا سألتهم عن المصدر الذى استقوا منه أنباءهم، أجابوك بقولهم "يقولون" ولست أدرى من هم هؤلاء الذين يقولون" ! ولقد لعبت هذه الاشاعات الكاذبة دورها فى ظروف الحرب الحاضرة، فكادت تطغى على أنباء القتال فى الميادين .

ونسرف فى التقليد إسرافا بعيـدا ينأى بنا عن حدود الدين وأحكامه، فقلدنا الغرب فى كثير من النظم والعادات، وأسرفنا فى التقليد إسرافا حطمنا فى سبيله حدود الدين ومعالم القومية، ولقد أضر بنا هذا التقليد ضررا بليغا فى حياتنا الاجتماعية لأننا لم نحسنه، إذ نقلنا عن الغرب مساوءه دون محاسنه: وقلدت المرأة الشرقية المرأة الغربية، ونهجت على منوالها فكان لهذا الإسراف فى التقليد أثره السيء فى مجتمعنا الشرقى الذى أفسدته تلك العناصر الدخيلة ولو أننا حرصنا على تراثنا القديم، وأكملنا بناء حضارتنا الأولى التى هى أم الحضارات جميعا، لكنا خير أمة أخرجت للناس، ولكنا أسبق الأمم فى ميادين الحضارة والرقى . ولقامت حضارتنا على أسس قوية، وطيدة، لا على شفا جرف هار .

ونسرف فى الثقة بالناس الى حدّ تضيع معه حقوقنا، فنمنح ثقتنا من ليس أهلا بالثقة ونملكه زمام الأمور، ونعهد إليه بها، فلا يحسن التصرف . ولا يقابل هذه الثقة بالعمل الصادق المخلص، فنكون نحن الضحية الأولى لهذه الثقة التى أسرفنا فى منحها لمن لا يستحقها

ونسرف فى تدليل أطفالنا الى حد يميت فيهم مقومات الشخصية القوية، ويعودهم الاستهتار والاستخفاف، والجزع عند الصدمة الأولى، والعجز عن تحمل الشدائد والخطوب.

ونسرف فى التحمس للمشروعات القومية، فلا نكاد ننادى بمشروع حتى تتأجج حماستنا وتبلغ أشدها، فنقبل على المشروع نحبذه ونعضده بكل ما أوتينا من عزم وقوة، ثم لا يلبث هذا الحماس المتأجج أن يفتر وتخمد جذوته، حتى يقبر المشروع . ويطوى فى ثنايا النسيان كأننا تنطبق علينا النظرية الطبيعية التى تقول إن الأجسام التى تسخن بسرعة تبرد بسرعة، فبقدر ما نلتهب حماسا ونندفع اندفاعا: نهمل المشروع وننصرف عن التفكير فيه، وننفض منه أيدينا !

ونسرف فى الاعجاب بقادة الرأى الى حد يبلغ التقديس، ونقابل كل أعمالهم بالحمد والثناء ثم فى أقرب من لمح البصر يتبدل هذا الاعجاب سخطا والويل كل الويل لمن يستهدف لهذا السخط ؛ والويل كل الويل لمن يظهر لنا العداء !

ونسرف فى الظن السيىء بالناس إلى حد الاثم ، فياذ لنا الخوض فى الأعراض وسمعة الأسر ، فى المقاهى والمنتديات ، وفى الدواوين ودور الأعمال ، وفى الطريق ومركبات الترام ، سرا وعلانية ؛ بالهمز واللمز فهذا رجل برئ نكيل له فى غيبته التهم ، وهذه سيدة كريمة طاهرة الذيل نرميها بفاحش القول ، ونتهمها بما هى منه براء ويروح كل منا يؤكد نظريته بشتى الأقاويل ، مظهرا براعته فى الاحاطة بكل صغيرة وكبيرة ويا حبذا لو عنى أمثال هؤلاء بالبحث عن القذى فى أعينهم قبل أن يعنوا بالبحث عن القذى فى أعين الناس ليتهم بدءوا بأنفسهم فقوموا منها ما أعوج ، وأصلحوا منها ما فسد ، وتركوا الناس وشأنهم ولم يلوثوا أعراضهم وسمعتهم بما يختلقونه من الأكاذيب ، وما يفترونه من الزور والبهتان .

هذا هو الطابع السيىء الذى انطبعت به معظم أعمالنا ، حتى غدى كأنه جزء منها ، والذى تغلب على تصرفاتنا حتى أصبح رمزا لها ، ولا ريب أن لهذا الاسراف أثره الملموس فى محيط حياتنا الاجتماعية ، وحرى بنا ، ونحن فى دور التحفز للرقى والنهوض ، أن ننهج طريق الاعتدال فى كل شأن من شؤوننا ، فالاعتدال من مقومات النجاح ، يأمن ناهجه عاقبة عمله ، فلا يندم على تبذير أو تفريط .

فلنلزم حدود الاعتدال والحكمة فلا نسرف فى ناحية من النواحى اسرافا ينأى بنا عن الهدف المنشود ، ولا نميل كل الميل أو نتطرف كل التطرف فى شأن من الشؤون ، فان لهذا الاسراف نتائج لعلى وفقت فى بيان بعضها فى هذا المقال ، وليجتهد كل منا أن يمحو هذا الطابع السيىء من نفسه ، وليختر له طابعا اخر ، هو طابع الحكمة والاعتدال ، يتخذه مبدأ له وشعارا ما

عيسى متولى
بنك مصر

تفاءل فى الأمور تظن قصدا ... وأنت مع الأمور على اضطرار
إذا فاتتك قلت اختار دهرى ... وإن هى لم تفت قلت اختيارى
وقد تجرى نحوس أو سعود ... وليس سوى قضاء الله جارى

شوقى